مؤسّسة الفكر العربي
ARAB THOUGHT FOUNDATION

حضارة واحدة
سلسلة كتب مترجمة تصدرها
مؤسّسة الفكر العربي

الأندلس
الدلالة والرمزيّة



بيدرو مارتينيث مونتابيث

الأنـدلـــــس

الدلالة والرمزيّة

حضارة واحدة
سلسلة كتب مترجمة تصدرها
مؤسّسة الفكر العربي

الأنـدلـــس
الدلالة والرمزيّة

بيدرو مارتينيث مونتابيث

ترجمة: رانيا هاشم سعد

الطبعة الأولى بالإسبانيّة العام 2011

الطبعة الأولى بالعربيّة 2018 م – 1439 هـ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 4259 - 6

سعر الكتاب 15$

المراجعة اللغوية والتدقيق:
مركز البحوث والدراسات في مؤسّسة الفكر العربيّ

مؤسّسة الفكر العربيّ
شارع الجامع العمري، الوسط التجاري، بيروت
ص.ب.: 524 - 11 بيروت – لبنان
هاتف: 100 997 1 961+ - فاكس: 101 997 1 961+
www.arabthought.org - info@arabthought.org

ولد بيدرو مارتينيث مونتابيث في العام 1933 في خودار، خاين، إسبانيا وكرّس نشاطه المهنيّ للتعليم الجامعيّ ولدراسة العالم العربيّ المعاصر والعلاقات الإسبانيّة العربيّة. عمل أستاذاً في جامعتي إشبيلية ومدريد وهو دكتور فخريّ في جامعات خاين وأليكانتي وغرناطة. عمل مونتابيث أيضاً أستاذاً زائراً في عدد من الجامعات العربيّة. تولّى منصب رئيس جامعة مدريد U.A.M بين العامَين 1978 و1982. حصل على جوائز عدّة، من أبرزها «جائزة الشيخ زايد للكتاب» (في الإمارات العربيّة المتّحدة) بوصفه الشخصيّة الثقافيّة للعام 2009، كما نال ميداليّة الأندلس للعام 2010، فضلاً عن تولّيه منصب رئاسة الجمعيّة الإسبانيّة للدراسات العربيّة (SEEA).

المحتويـات

مقدّمة الطبعة العربيّة 11

المقدّمــة 17

القسم الأوّل: تناقضٌ وجدليّة

الفصل الأوّل

الأندلس: الهويّة الغيريّة (1992) 25

الفصل الثاني

الأندلس: واقعٌ ورمزيّة (1991) 35

الفصل الثالث

الأندلس: نهايةٌ واستمراريّة (1991) 49

الفصل الرابع

غرناطة الأندلسيّة: نهايةٌ واستمراريّة (1993) 61

الفصل الخامس

غرناطة والحمراء في وجدان العرب اليوم (1992) 75

الفصل السادس

الأندلس والوجدُ التاريخيّ (1992) 87

الفصل السابع

الخليفة عبد الرّحمن الثالث في العالم العربيّ اليوم (1991) 91

الفصل الثامن
لماذا لا نُواصِلُ التأمّلَ في الأندلس؟ (2005) 95

الفصل التاسع
لماذا يجدرُ بنا مواصلةُ التأمّل في الأندلس؟ (2006) 109

الفصل العاشر
الأندلس: وجودٌ ورمزيّة (2010) 125

القسم الثاني: في الثقافة والسياسة

الفصل الحادي عشر
ثلاثُ ثقافاتٍ وتواصلٌ في ما بينها (2004) 137

الفصل الثاني عشر
الإسلام: من الثقافة المتعدّدة إلى التواصل ما بين الثقافات؟ (2007) 149

الفصل الثالث عشر
الواقع المتوسّطي: دهشة، تنوّع وثقافة مُتضامِنة (2006) 159

الفصل الرابع عشر
العلاقة، الرؤية والحوار (2008) 173

الفصل الخامس عشر
إسبانيا – الأندلس والعالم العربيّ: المثلّث الضروريّ المتساوي الأضلاع (2003) 181

الفصل السادس عشر
مفاتيح التباعد بين الغرب والعالَم العربيّ (2009) 201

القسم الثالث: الذاكرة والنسيان

الفصل السابع عشر
الموريسكيّون: تهميشٌ وشتاتٌ وتجاهل (1974) 229

الفصل الثامن عشر
قراءةُ مُستعربٍ لفكر أميريكو كاسترو (1983) 237

الفصل التاسع عشر
سرفانتس والإسلام (2007) 255

الفصل العشرون
أميريكو كاسترو والموريسكيّون (2009) 277

الفصل الحادي والعشرون
الموريسكيّون، الأندلس وإسبانيا (2009) 305

القسم الرابع: الأندلس والاستعراب الإسبانيّ

الفصل الثاني والعشرون
الاستعراب والاستعراب الإسبانيّ (2007) 331

الفصل الثالث والعشرون
ماريا خيسوس روبييرا ودراساتها حول الأدب العربيّ (1994) 339

الفصل الرابع والعشرون
رودولفو خيل بن أميّة غريمو: طيفٌ مُضيء (2008) 347

الفصل الخامس والعشرون
شهادةُ ناجٍ نموذجيّ: ميغيل خوسي هاغيرتي فوكس (2010) 351

القسم الخامس: البحث عن موقع الأندلس

الفصل السادس والعشرون
أين نضعُ الأندلس؟ (2006) 359

الفصل السابع والعشرون
وضعُ الأندلس في موقعها (2008) 363

مقدّمة الطبعة العربيّة

صدرَت النسخةُ الأصليّةُ من هذا الكِتاب باللّغة الإسبانيّة في العام 2011، تزامناً مع المئويّة الثالثة عشرة لدخول الإسلام شبه الجزيرة الإيبيريّة (العام 711م.)، وتزامناً مع المئوية الرابعة لطرد الموريسكيّين من الأندلس (1609–1614). فيغطّي هذا الكتاب إذاً التاريخ الطويل للأندلس (711–1492)، ووقائعه، ومخلّفاته.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ التاريخَين المذكورَين أعلاه هما من المحطّات التي يجدرُ بنا التوقّف عندها لدى التطرّق إلى تاريخ إسبانيا. لهذا السبب، قرّرتُ أن أشاركَ في تأريخ تلك الحوادث المميَّزة، فأجمعُ في هذا الكتاب ما سبق لي وكتبتُه كلّه حول الموضوع. لا أنوي البقاء على هامش تلك الذكرى، التي تكتسي بالنّسبة إليّ قيمةً ودلالةً مميَّزتَين، إن ببُعدها الماديّ أو ببُعدها الرمزيّ.

في هذا السياق، أؤكّد أنّني لستُ متخصّصاً في دراسة الواقع الأندلسيّ ولم أكرّس أعمالي له حصراً. فموضوعُ اهتمامي ودراستي وبحثي إنّما كان، وما زال إلى الساعة، ذاك الكيان المعقّد الذي نطلقُ عليه عادةً تسميةَ العالَم العربيّ المُعاصِر، فضلاً عمّا ينتجُه من ظواهر متنوّعة. غير أنّ الأندلس قد شكّلت منذ سنواتٍ عدّة واحدةً من موضوعات تأمّلي المهنيّ الأهمّ، وأحد المخاوف الفكريّة والحيويّة التي تقضُّ مضجعي. أمّا سبب ذلك، فهو ليس عائداً إلى ما خلّفَته الأندلس من تأثيرٍ في الوجود التاريخيّ لإسبانيا، وللبصمة الجليّة التي تركتها في هويّتنا الفريدة وثقافتنا المنوّعة الغنيّة فحسب، بل أيضاً لطبيعتها الخاصّة: فهي تُشكّلُ مثالاً فريداً وقيّماً للالتقاء بين الغرب الأوروبيّ المسيحيّ والشرق العربيّ الإسلاميّ؛ وهذا ما يضعُ الظاهرة الأندلسيّة في سياقٍ مميّزٍ ومذهلٍ من

العالميّـة لا يضاهيـه أيُّ سـياقٍ آخر، ويُضفي علـى الأندلس جوانبَ اسـتثنائيّة؛ فيتيحُ لها تجاوزَ حدودها المكانيّة والزمنيّة.

يجمع الكتابُ الذي بين أيدينا سبعاً وعشرين مدوّنةً مختلفةَ الطبيعة والنطاق والغاية، وقد كُتبت أيضاً في حقباتٍ منفصلة. تعودُ ثمانٍ منها إلى العقد الأخيرِ من القرن العشرين، وإلـى نصفـه الأوّل تحديـداً، أيّ إلـى الفترة الممتـدّة ما بيـن العامَيْـن 1991 و1994؛ بينما يعـودُ أكثـرُ من نصف المدوّنات الأخرى إلى العقد الأوّل من القرن الحادي والعشـرين، وتحديداً إلى الأعوام الممتدّة ما بين عامَي 2003 و2010. غير أنّ نصَّين اثنَين يقعان خارج هذَيـن الإطارَين الزمنيّين المُحدّدين: يعـود الأوّل منهما إلى العام 1974 والثاني إلى العام 1983. ويجمـع الكتـاب بالتالي مادّةً حدثت علـى امتداد الفترة الانتقاليّـة بين قرنٍ وآخر، بيـن قـرن انتهى وآخـر بدأ. بعبارةٍ أخـرى، على امتداد حقبة زمنيّة شـابها القدرُ نفسـه من الاستمراريّة والانقطاع، حقبة أقلّ ما يُقال فيها إنّها جسرٌ وساحة.

لم أُشِر إلى تلك التفاصيل الزمنيّة عبثاً؛ فإنّما تعمَّدتُ التشديدَ على أنّ نظامَ العلاقات مـا بين الشـرق العربيّ الإسـلاميّ والغرب المسـيحيّ الأوروبيّ الأميركيّ قد شـهدَ، في خـلال تلـك الفترة الانتقاليّة بيـن قرنٍ وآخر، تغيّـراتٍ وتبدّلاتٍ خطِرة لم تمتـدّ مفاعيلُها إلى المرحلة الحاليّة فحسـب، بل تزايدت وازدادت خطورةً أيضاً. أنا واثقٌ تمام الثقة من أنّ هـذا الواقـعَ قد خلّف بصماتٍ عميقـةً تنامت في تأمّلاتي حـول الموضوع. ويقع ذكرُ الأندلس من ضمن هذا الإطار من المخاوف العميقة، ويعكسُها بشكلٍ واعٍ أو لا واعٍ.

لم يكُن سـهلاً اختيارُ عنوانٍ يعبِّرُ التعبيرَ الصحيحَ عن تلك المجموعة من المدوّنات المختلفة الطبيعـة، وقد استغرقَتْ تلك المهمّةُ بعض الوقت. فرحتُ أبحثُ عـن عنوانٍ بـالأندلس يحملُ كياناً كافياً بحدّ ذاته، ويفتح في الوقت نفسه إمكاناتٍ أخرى من الرؤى، ومن الآفاق الجديدة في التفسـير، يكون في الوقت نفسه حقيقيّاً وخياليّاً. تالياً اخترتُ ما عنونْتـهُ بـ**الأندلـس: الدلالة والرمزيّـة** *Significado y Símbolo de Al-Andalus*، وهو برأيي عنـوانٌ جمعَ جمعـاً مثاليّاً بين البُعديـن المكوِّنين للأندلس، واللّذيـن يميّزانها ويضفيان عليها الصفتَين المادّية والرمزيّة في آنٍ معاً. بعبارةٍ أخرى، يُشير العنوان إلى ما كانت عليه الأندلس، وما زالت، في المخيّلتَين والذاكرتَين الجماعيّة: العربيّة الإسـلاميّة والإسبانيّة المسـيحيّة. فالدلالةُ والرمزيّةُ علامتان وسِمتان تضفيان على الأندلس القيمة والأهميّة. الدلالـةُ للتعبير، بقدر الإمكان، عن الواقـع التاريخيّ للأندلس، والرمزيّة للتعبير عمّا هو

فـي حقيقته الكمونيّة. فالبُعد الأوّل يضعها في إطارٍ زمنيّ محدّد هو الماضي، بينما يضع الأندلس البُعد الثاني في زمنٍ لا حدود له، زمن متناقض في الظاهر.

ثمّة نزعةٌ واضحة إلى المساواة بين الرمز والأسطورة، وإلى جعلهما مترادفَين. غير أنّ هذه النزعة قد تكونُ مضرّةً، ومشوبةً بالتحيّز، ومشبعةً بالنوايا السيّئة في بعض الأحيان. لا يمكنُنا أن ننكرَ أنّ الرمز والأسطورة يؤسّسان أشكالاً متغيّرة وناشطةً من العلاقة والتبادل، غير أنّ كلّاً منهما يندرجُ ضمنَ الإطار المتميّز للإنجاز والقدرة الإبداعيّة. فالرمزُ مستقلٌّ بطبيعتـه، لا يحتـاجُ إلى الأسـطورة، بينما تحتاجُ هذه الأخيرة إليه وتسـتخدمه. يسـتعملُ الرمزُ والأسـطورة السـحرَ وهما خاضعان لعمليّة الميثات. غير أنّ الأسـطورة تقعُ رهينةَ السحر والميثات أكثر ممّا يقع فيهما الرمز الذي لا يخضع لتأثيرهما خضوعاً كاملاً. وفي حالة الأندلس، يبرز الامتدادُ الأسـطوريّ المتغيّر بشـكلٍ أكثر تواتراً ممّا تبرز فيه الطبيعة الرمزيّـة. وقـد تنامت تلـك النزعة في خـلال العَقديـن أو العقود الثلاثة الأخيـرة، إن من الجانب العربيّ أو من الجانب الإسبانيّ، مع أنّها اختلفت في كلّ حالةٍ من حيث المصدر والغايـة. لقـد كنتُ واضحـاً في هذا السـياق عندما أكّـدتُ على التالي: تُشـكّلُ الأندلس الرمزيّـة مرجعـاً مضيئاً ورائعـاً يجمع ما بين عراقة الماضي وبشـرى المسـتقبل: الحقيقة الرمزيّة للأندلس تتفوّق بطبيعتها على شكلها الأسطوريّ.

لقد شهدَ العالَم، على نطاقٍ واسع، تحوّلاتٍ وتقلّباتٍ هائلة وجذريّة في خلال العقود الأخيرة، لم نتوصّل إلى تفسـيرها. ممّا لا شـكّ فيه أنّ البشرية قد دخلت حقبةً جديدة، ما زالـت تفتقر إلى تسـميةٍ دقيقة وملموسـة. ما يُمكننـا تأكيده، مع مرور الأيّام، أنّ مسـتوى التباعد بين الأفراد والمؤسّسـات والمجتمعات والمُواجهات والمآسي الجماعية، فضلاً عـن الإخفـاق في إيجاد الحلـول المُنصِفـة والمُتوازنة لتلـك الكوارث، قد بلـغ مبلغاً لا يقبـل الشـكّ. فكلّما تباهينا بالتضامـن والتبادل بين الثقافات، ابتعدنا عـن التعاون المتين والمتساوي والمثمِر، ابتعدنا عن التواصل الضروريّ ما بين الثقافات.

إنّ الخضـوع للصـورة يُثقلُ المخيّلة. نتيجة ذلك، تصبـحُ الطرقُ التي تقرّبُنا من الآخر المختلف عنّا، طرقُ الفهم والتقبّل المتبادلَين، غيرَ سالكة، ملأى بالتحويلات والأفخاخ والعلامـات الخاطئـة. فلا نعرف ما العمل وسـط التعقيدات وخيبـات الأمل، ولا نعرف إلى وجهتنا سبيلاً. فيعمُّ جوٌّ من الإحباط والعدائيّة والمواجهة والحَذَر، لا يلبث أن يطالَ المجالات كافّة. لكنّ الوضع قد تدهور وازداد خطورةً بشـكلٍ خاصّ في إطار العلاقات

بين هذين الجانبَين اللّذين أشـرتُ إليهما: الشـرق الإسـلاميّ والغرب المسيحيّ. لطالما كانـت العلاقاتُ تلك متأرجحةً معقّدة وصعبة، لكنّها اليوم ازدادت سـوءاً. مع ذلك، من الملـحّ والضروريّ البحثُ عن مسـاحاتٍ للتأمّل والاعتـراف المتبادَلين، للّقاء والحوار، ولإعـادة فتح تلك المسـاحات فـي الحقيقة وتحديثهـا وتكييفها مع ضـرورات الحاضر والمسـتقبل القريب. وفي ذلك إمكانيّة بناء مسـتقبلٍ أفضل للجميع أو عدم إمكانيّة ذلك. إنّها مُهمّة لا يُمكننا التخلّي عنها أو رفضها، أو وضعها بيد وسطاء افتراضيّين.

لقـد أسـهمت النظـرةُ إلى الأندلس في رسـم صـورةٍ لهـذه الأخيرة لا تعكـسُ الواقعَ التاريخيّ، بل تسهمُ في انحطاطه وتجريده من صفاته الأصليّة النقيّة. إنّها فكرةٌ لم أتبنّاها يوماً ولم أتشـاركها. فصورةُ الأندلس المثاليّة والقدوة في مجال التعايش الكامل والدائم هـي صورةٌ غير حقيقيّة، ولا تمتّ إلى التاريخ بصلة؛ ذلك أنّ البشـريّة لم تلقَ نفسـها أبداً في حالةٍ مشـابهة من المثاليّة، حتّى ولو أنّها تطلّعت إلى بلوغها في مناسـبات اسـتثنائيّة. لكـن، مـا لا يسـعنا إنكاره وما يُصـدّقُ عليـه التاريخ، هـو أنّ الأندلس قد شـهدت، على امتدادِ وجودها الطويل، لقرونٍ ثمانية، نشـوءَ أنظمةٍ وأشكالٍ من التعايش المتقدّم الفعّال والجدير بالاحترام. هذا ما حصلَ في حالاتٍ ومناسباتٍ متنوّعة وما صادق عليه التاريخ. فتلـك القدرةُ علـى الاعتراف بالآخر والتقبّـل المتبادل بين الأفـراد والقطاعات والفئات الاجتماعيّة المتمايزة، مورسـت في الأندلس، من دون أن تكون ممارسةً ظرفيّةً فحسب؛ كما أنّها لـم تكن دائمةً ولا غير قابلة للتغيّر.

لا بدّ من التذكير بأنّ ما سـبق يؤدّي دَوراً فعّالاً وحاسِماً في مجال التبادل الثقافيّ وفي مجـال الإنجازات الفنيّة القيّمة بحدّ ذاتها، والمُبتكَرة أيضاً. إنّها أشـكالٌ من التعبير تتميّزُ قبل كلّ شـيء بقدرتها على تهجين العناصر الناشئة عن النمطَين الثقافيّين اللّذَيْن سينتهي بهمـا الأمر إلـى الالتقاء فوق أراضي شـبه الجزيـرة الإيبيريّـة: الثقافةُ العربيّة الإسـلاميّة والثقافة الإسـبانيّة المسـيحيّة. سـوف أكتفـي بذكر ثلاثة أمثلـةٍ بارزة عن ظاهـرة التقاطُع والتهجين: الخَرْجَة[1]، والروايةُ، والفنّ المدجّن.

تاليـاً، لقـد اكتسـبت الأندلس دلالتَها وقـد تبلورَت رمـزاً. أمّا تحويلُها إلى أسـطورةٍ، فظاهرةٌ سـلبيّة في حين أنّ المطالبة بِقيم كيانها الدلاليّ وبُعدها الرمزيّ فظاهرةٌ إيجابيّة لا

(1) الخرجة: مصطلح أدبيّ يُشير إلى نهاية المقطع الأخير من الموشّح (قصيدة عربيّة أو عبرانيّة في شكلٍ ثابت) اختُرِع في الأندلس في إسبانيا في العصور الوسطى المسلمة (المُترجمة).

بل ضروريّة وتزداد ضرورة، ولاسيّما في المجال الثقافي، وفي عصرنا الحاليّ. هذا إذا ما أردنا بالفعل، وقبل كلّ شيء أن تستحيل العلاقات الإسبانيّة العربيّة رسالةً ملموسة وأن تتشكّل حقيقةً صلبة ونافذة، لا أن تقتصرَ على مجرّدِ صيغةٍ تقليديّة من صيغ المُجَاملة وعلى تعبيرٍ هشّ وانتقاليّ.

هذه هي الروح التي لطالما حرّكتني والتي جمعها الكِتاب الذي بين أيدينا وعكَسها. برأيي لقد نجحتُ في البقاء أميناً لدلالة الأندلس ورمزيّتها، ولضرورات البشريّة أيضاً في زمن الاضطرابات هذا والكوارث والمخاطر والمُواجَهات.

أخيراً أتوجّهُ بالشكر إلى «**مؤسّسة الفكر العربيّ**» التي أدرجَت هذا الكِتاب في مجموعة منشوراتها النفيسة، وإلى السيّدة ألين خليل لما قدّمته من مساعدة وعونٍ في تنفيذ المشروع.

بيدرو مارتينيث مونتابيث

مدريد، كانون الثاني (يناير) 2017

المقدّمــة

كما سبق لـي وفعلتُ مراراً عديدة، لقد جمعتُ في المجلّـد الذي بين أيدينا مدوّنات شـخصيّة تُقـارِب الثلاثيـن اعتنيتُ بلملمتها من منشـوراتٍ متنوّعـة. وتوخّيتُ من خلال ذلـك، الإضـاءة على عنصرَي ترابـطٍ نقع عليهما فـي المدوّنات المذكـورة، يتمثّلان من جهـة في الموضوع العامّ الذي تعالجه المدوّنات بحثـاً واهتماماً، ألا وهو الأندلس، كما يتمثّلان من جهة ثانية في المُقاربَة التي تعتمدها المدوّنات تلك للمُعالجة والتفكير.

في هذا السـياق، أشير إلى أنّ المدوّنات تختلف مصدراً ونوعاً. فنجد منها على سبيل المثـال نمـاذج من بحـوث أكاديميّة غير علميّـة، أو أخرى جَمَعت بيـن التاريخ والأدب. أضف إليها مروحةً من المقالات الصحافيّة والسِيَر الذاتيّة ومقترحاتٍ للمراجعة الشاملة. وهـي تتضمّـن أيضـاً مجموعة مختارة مـن الحوارات المسـهبة لعلّها توصَـف بالمُناجاة الداخلية الشـخصيّة. فضـلاً عن عددٍ من البحـوث والمُداخلات والنصـوص قُدّمت في الأساس على هامش مؤتمرات أو لقاءات أو ندوات أو مناسبات مختلفة.

أضيـفُ في السـياق نفسـه، أنّ المدوّنـات المذكورة (باسـتثناء حالتَين) شـاهدةٌ على مراحـل محدَّدة وواقعيّة من حياتي كما على نشـاطي المهنـيّ وعصارة فكري. تعود ثمانٍ منهـا، أيّ ما يناهز ثلـث المجموع، إلى النصف الأوّل من العقـد الأخير للقرن الماضي، وتحديداً إلى العامَين 1991 و1992؛ في حين يرتبط أكثر من نصفها، أو سبع عشرة مدوّنة، بالعقد الأوّل من هذا القرن، بدءاً من العام 2003.

تاليـاً تفصـل بيـن كلّ مجموعة مـن المدوّنات وأخـرى مسـافةٌ زمنيّة تُناهز عشـرات السـنين؛ وفـي ذلك ما يثير الدهشـة والتناقض ويبعث على التفكيـر والتأمّل. فالأمر ليس

مـن محض المصادفة، لكنّني لن أغوص فيه في الوقت الحالي. قد أتقصّى الأسـباب في مرحلة لاحقة وأبحث في التفسيرات.

عودةٌ إلى الاسـتثنائيَن اللّذَين أتيتُ على ذكرهما سـابقاً، فهما يتمثّلان بوثيقتَين يُمكن توصيفهمـا بالرائدتَين أو المتقدّمتَين علـى حقبتِهما: تعود إحداهما إلى العام 1974، وهي الوثيقة الأولى التي تبحث في الموضوع الموريسكيّ الإسباني. أمّا الثانية فتعود إلى العام 1983 وتُعدّ أيضاً الوثيقة الأولى التي تتوغّل في فكر المؤرّخ أميريكو كاسـترو[1] Américo Castro من خلال أعماله الضخمة.

كمـا سـبق لي وأكّدت، فإنّ الكِتاب الذي بين أيدينا يجمـع عصارة تفكيري في الواقع الأندلسيّ. وأشير إلى أنّني لستُ بالمتخصّص المُحترِف في الشؤون الأندلسيّة، ولا أدّعي تضلُّعـي فـي معرفة تلك الحقبة الطويلة والغنيّة من تاريخ شـبه الجزيرة الإيبيريّة، بتميّزها وفرادتهـا. فأنا مسـتعربٌ كـرّسَ وقته، إلـى جانب التدريـس الجامعيّ وإدارة المؤسّسـة الأكاديميّة، لدراسة ما نُطلِق عليه عادةً تسمية العالَم العربيّ الإسلاميّ المُعاصِر.

لمّا كنتُ وما زلتُ باحثاً في «الحاضر» وتأثيره في «المسـتقبل»، من دون أن أعود إلى «الماضي»، فمن المنطقيّ والمبرَّر أن يطرح القارئُ في هذا الصدد جملةً من التسـاؤلات ومنها: ما الذي دفع بهذا الرجل إلى الكتابة عن الأندلس تحديداً وإصدار هذا المجلّد في هذا التوقيت بالذات؟ أمّا الإجابة فأراها سهلة ومباشرة، يقبلها أيُّ شخصٍ كان ويفهمها، باستثناء مَن عابَه ضيق النظر والذهن.

برأيـي الواضح والصريح، لا يُمكن تنظيم تاريخ البشـريّة بأيّ من مظاهره أو نماذجه، شطوراً محدَّدة الأزمان والأوقات، أو مراحلَ متقطّعة تفتقر إلى العلاقات والروابط افتقاراً كاملاً. فلو فعلنا ذلك، وقعنا في مُمارسةٍ منحرفةٍ مُناهِضة للمبادئ التربويّة، وإن بدت في أحيان كثيرة عكس ذلك. فتاريخ البشـريّة يشـوبه التغيّر بجوانبه كافّة، كما يحرّكه الإيقاع ويحكمه التعاقب. فيه الجديد والمختلف، وفيه أيضاً الاسـتمراريّة والتوازي والتواصل. فـي هـذا الإطار أوضحُ أنّ النظرة التـي أطرحها لا تمتُّ بصلةٍ إلى التصـوّرات الخطيّة أو

(1) أميريكو كاسترو كيسادا Américo Castro فقيه لغويّ ومؤرّخ ثقافيّ إسبانيّ، وُلد في كانتاجالو في ولاية ريو دي جانيرو في البرازيل في 4 أيار (مايو) عام 1885. وتُوفي في يوريت دي مار في إسبانيا في 25 تموز (يوليو) عام 1972. تخصّص في الثقافة الإسبانيّة وكانت له مشاركات في كتابة عدد من النصوص حول الأدب الإسباني. من مؤلّفاته: *La realidad histórica de España, El pensamiento de Cervantes, Vida de Lope de Vega*. (المُترجمة).

الدائرية لتاريخ البشرية؛ إنّها ببساطة انعكاسٌ للواقع وتعبيرٌ عن جوانبه. ومَن اعتاد التأمّل في الحاضر واستطلاع المستقبل، ليس عاجزاً عن التأمّل في الماضي أيضاً وعن تذكّره والبحث في محطّاته.

صحيحٌ أنّني لست مُتخصّصاً في الشؤون الأندلسيّة، لكنّها لطالما شكّلت جزءاً من اهتماماتي ومخاوفي، إن بشكلٍ صريح أو ضمنيّ، ولطالما لازمتني وأثارت فضولي واهتمامي العميقَين.

أعود وأكرّر أنّني بعيدٌ البُعد كلّه عن التخصّص في الحقبة الأندلسيّة. لستُ بالعلّامة الغارق في دراسة شؤونها وشجونها؛ لكنّني مدافعٌ شرسٌ عن ضرورة التعرّف إليها ودراستها ونشرها. وأضيف أنّ البحث في الحقبة الأندلسيّة وتقصّي جوانبها لطالما شكّلا بالنسبة إليّ تحدّياً فكريّاً عظيماً لا يرتبط بمهنة أو تخصّص.

غير أنّنا نقع في معرض التأمّل في المسألة على جانبٍ آخر غاية في الأهميّة. فطرحُ موضوع الأندلس إنّما هو طرحٌ لموضوعٍ أشمل وأوسع نطاقاً اكتسب منذ عقود عدّة أهميّة تعاظمت مع الوقت، فتخطّى كونه مجموعة من الآراء والجدليّات المتفرّقة، ليصبح عاصفة من الأهواء الجيّاشة. إنّه موضوع العلاقة بين الغرب الأوروبيّ والأميركيّ الشماليّ المسيحيّ من جهة، والشرق العربيّ الإسلاميّ من جهة أخرى.

تالياً، إنّ طرح الأندلس موضوعاً رئيساً لنقاشنا يفترضُ مُعالجة تلك الحقبة من خلال مظاهرها ونماذجها الأهمّ التي تحمل في طيّاتها المدلول الأعمق عن الواقع والرمز الأكثر تعبيراً عنه. كما تحمل خير تفسيرٍ للأسباب التي حدت بمستعربٍ، لطالما عُنيَ بدراسة شؤون العالَم العربيّ المعاصر، إلى التأمّل في تلك الحقبة. فالواقع الأندلسي ليس بالفقّاعة التاريخيّة العابِرة أو بالمادّة الجامدة أو المعلّقة، أو بالظاهرة المحكوم عليها بالعزلة. الواقع الأندلسي مرجعٌ أساس، قل إنّه نموذجٌ عن التأثير في التاريخ وأفقٌ لا يعرف حدوداً.

لا يسعنا إلّا أن نضعَ الأندلس من ضمن هذا الإطار العالمي المعقَّد من التأمّل والدراسة وأن نعتبر تلك المادّة الراسخة في الماضي مادّةً تليق أيضاً بالحاضر والمستقبل، ما قد يُفاجِئ مجموعةً لا بأس بها من الأشخاص. بالنسبة إليّ، الأندلس مادّة الأمس واليوم وغداً، التي يُمكن التوقّف عندها والتأمّل فيها وإن مرّ عليها الوقت.

أمّـا توزيع النصوص وتجميعها في أبواب متنوّعة، مزوّدة بعناوين ملائمة، فقد اسـتندا إلى معايير أساسيّة، منها تفصيل موادّ النصوص التي يتضمّنها المجلّد وإظهار التقارب بينها مـن حيث الموضوع والفكرة. أُشـير إلى أنّني توخّيت إيراد النصوص بنسـختها الأصليّة، ولـم أُجرِ عليها إلّا ما ندر من التصحيحات والتعديلات متى ارتأيتُ ضرورة القيام بذلك. أمّا الحواشي في أسفل الصفحة فأرَّخت النصوصَ تأريخاً وافياً في المكان والزمان.

في السـياق نفسـه، أوضح أنّني أرتأيتُ في معظم الحالات تسـهيل كتابة أسماء العَلَم العربيّة قدر الإمكان. لكنّني لم أوفّق في القيام بذلك بطريقةٍ واحدةٍ موحّدةٍ في الحالات كافّة، ما يعكس هوامش الشكّ والتردّد الحتميّة التي يقع فيها المؤلّف في حالات مماثلة. أعتـرف بأنّنـي فعلت ما بوسـعي لإصـدار المجلّد في العـام 2011 الذي يصـادف المئوية الثالثة عشرة لنشوء الأندلس، تزامناً مع انتشار الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية. فالتاريخ غايـة في الأهميّـة ولا يُمكن المرور عليه مـرور الكرام، أو إهماله أو التكتّم بشـأنه. لهذه الأسباب، أردتُ ببساطة أن أتدخّل في ما لا يعنيني.

يُعَـدّ العـام 2011 محطّـة تاريخيّـةً مهمّـة تُحيلنا إلى محطّـةٍ أخرى حاسـمة وهي العام 711. عن هذا الموضوع، كتب البروفسـور خوسي أنريكي رويز دومينيك[2] José Enrique Ruiz–Domènec مؤخّراً: «يمثّل العام 711 محطّة مهمّة في تاريخ إسبانيا؛ وهو أيضاً عنوانٌ لحـدثٍ تاريخيٍّ بارزٍ طَبَع الذاكـرة الاجتماعيّة»، وأضاف «تُواجِـه محطّة العام 711 خطر التحوّل إلى قصرٍ من زجاج»؛ وهذا ما يستوقفنا ويستدعي منّا التفكير العميق.

لا يسـعني في هذا الإطار إلّا أن أسـتذكر أيضاً ما كتبه كلٌّ من ميغيل أسين بالاثيوس[3] Miguel Asín Palacios وإيميليـو غارثيـا غوميز[4] Emilio García Gomez في العام 1933 في مقدّمـة العـدد الأوّل من مجلّـة «**الأندلس**» الصادرة عن مدرسَـتَي الدراسـات العربيّة في مدريد وغرناطة[5] Escuelas Árabes de Madrid y Granada، اللتَين أُسِّستا بموجب القانون الصادر عن الجمهورية الإسبانيّة بتاريخ 27 كانون الثاني (يناير) 1932.

(2) مؤرّخ إسباني (7 نيسان / أبريل 1948)، متخصّص في العصور الوسطى والثقافة الإسبانيّة (المُترجمة).

(3) ولد في سرقسطة ، إسبانيا في 5 تموز (يوليو) 1871 وهو كاتب إسباني ومتخصّص في العلوم الإسلاميّة. من مؤسّسي مدرستَي الدراسات العربيّة في مدريد وغرناطة (المُترجمة).

(4) ولد في مدريد إسبانيا في 4 حزيران (يونيو) 1905. مُستعرِب ومُترجم إسباني ومن مؤسّسي مدرستي الدراسات العربيّة في مدريد وغرناطة (المُترجمة).

(5) يرجع تاريخ إنشاء أولى المؤسّسات الإسبانيّة التي تهتمّ بالدراسات العربيّة إلى سنة 1935، حيث أسّس أسين بالاثيوس وصديقه إميليو غارثيا غوميز (أبرز مستعربَين إسبانيَّين في القرن العشرين) مدرسة الدراسات العربيّة في مدريد، ثمّ بعد ذلك بسنوات قليلة أسّسا فرعاً تابعاً لها في غرناطة. وتُعتبر المدرستَان في الوقت الحاضر، المركزَين الوحيدَين المهتمَّين بالبحث العلميّ حول الثقافة العربيّة (المُترجمة).

أمّا الأسباب الكامنة وراء تأسيس هاتَين المدرستَين فتلخّص بـ«الواجب المُلقى على عاتق إسبانيا في ما يتعلّق بدراسة الإرث الثقافي الذي خلّفته الحضارة الإسلاميّة في العصور الوسطى وبتقويمه تقويماً عادلاً، فضلاً عن التوقّف عند البصمات المهمّة التي تركها المسلمون في تاريخنا السياسيّ والاقتصاديّ في خلال ثمانية قرون من الحُكم والتعايش. ولا نغفل عن إسهامات الإسلام الثمينة في أوروبا عموماً، وإسبانيا خصوصاً».

يضيف ميغيل أسين بالاثيوس وإيميلو غارثيا غوميز: «بالنسبة إلينا، تُعدّ الدراسات العربيّة ضرورة عميقة لا بل حميمة؛ فكما سبق لنا وقلنا، تُضاف تلك الدراسات إلى صفحات عديدة من تاريخنا وتُبيِّن خصائص قيّمة كثيرة من أدبنا وفكرنا وفنّنا. فقد توغّلت في لغتنا وفي حياتنا إلى حدّ ما».

أعود وأُشدّد على ضرورة تذكُّر تلك الحقبة الأندلسيّة في الحاضر والتأمّل فيها؛ وهذا ما أحاول القيام به منذ بعض الوقت، وإن لم يكُن يوماً موضوع الدراسة المُفضَّل لديّ.

في النهاية، أشير إلى أنّ المجلّد الذي بين أيدينا لم يكُن ليبصر النور لولا إسهام كلٍّ من مؤسّسة ابن طفيل للدراسات العربيّة[6] ودار نشر كانت أرابيا[7] CantArabia. وأذكر بالأسماء كلّاً من خورخي ليرولا ديلغادو[8] Jorge Lirola Delgado وخوسي ميغيل بويرتا فيلشيز[9] José Miguel Puerta Vílchez وكارمن رويث برافو فياسانتي[10] Carmen Ruiz Bravo - Villasante، وأنوّه بالمجهود الذي بذلوه في عمليّة النشر وأعبّر لهم عن امتناني العميق.

بيدرو مارتينيث مونتابيث

مدريد، 4 كانون الثاني (يناير) 2011

---

(6) مؤسّسة ابن طفيل للدراسات العربيّة هي مؤسّسة ثقافيّة أُسِّست في مدينة ألمرية الإسبانيّة في 7 تموز (يوليو) 2003. تهدف إلى تشجيع المشروعات البحثيّة المتعلّقة باللغة العربيّة وآدابها وتاريخ العالَم العربي والتاريخ الأندلسي (المُترجمة).

(7) دار نشر متخصّصة في الدراسات العربيّة ومقرّها مدريد (المُترجمة).

(8) بروفسور في الدراسات العربيّة والإسلامية (المُترجمة).

(9) مدير قسم تاريخ الفنون في جامعة غرناطة ومتخصّص في الشؤون العربيّة والإسلامية (المُترجمة).

(10) مُستعربة إسبانيّة متخصّصة في الأدب والفكر العربيّ المعاصر. أستاذة كرسي الدراسات العربيّة والإسلاميّة في جامعة أوتونوما – مدريد سابقاً (المُترجمة).

القسم الأوّل

تناقضٌ وجدليّة

الفصل الأوّل

الأندلس: الهويّة الغيريّة [1]

لطالما اعتُبرَ التأمّلُ في الواقع الأندلسـيّ والتوقّفُ عند محطّاته، وتحديداً بالنّسبة إلى الإسـبان، عملاً فكريّاً مبرّراً وبعيداً عن الزيف والابتذال. فتحليلُ «الواقع الأندلسـيّ» أو الإسـبانيّ العربيّ، كما يحلو لبعضهم تسـميته، يعني التركيزَ على جزءٍ من كياننا التاريخيّ أقـلُّ ما يُقـال فيه إنّه الجزءُ الأكثرُ تميّـزاً وفرادة. كيف لا يكون كذلـك، وهو يَصِفُ واقعاً منجَزاً ببُعـده المـاديّ وقـد أوصدَ الزمـنُ عليه البـاب، لكنّه لم يسـلبه بُعـدَه الرمزيّ إلى اليـوم؛ ويعني تاليـاً أن نقفَ في مُواجَهَة جزءٍ من الـ«نحنُ» وهو جزءٌ طبيعيّ من «الآخر». إنّهـا لَجَدليّـةٌ غريبةٌ عجيبة تتيـحُ لنا إدراكَ أنماط الهويّة والغيريّة من ضمن الشـيء نفسـه وليس من ضمن أشـياء مختلفة. لهذه الأسـباب كلّها، يتخطّى التأمّلُ في الواقع الأندلسيّ الأهميّةَ التاريخيّة، ليعكسَ موقفاً فكريّاً لا يقبلُ الجدل؛ وهو تأمّلٌ مشحونٌ بمجموعةٍ من الدلالات العقائديّة.

قـد نذهـبُ إلى القول إنّ الإسـبان تخونُهم فـي كثيرٍ من الأحيان القـدرةُ على معالجة أيّ موضـوع من موضوعات البحـث معالجةً مُحايدة. تالياً، ينتهي الأمرُ بمعظم مسـاعي البحـث إلـى عكـس ما اقترحـه المبدأ. وهـذه هي الحـال بالنّسـبة إلى معالجـة «الواقع» الإسـبانيّ العربيّ التي غاب عنها طابعُ الحياد، على غرارِ كثيرٍ من الموضوعات القوميّة. ما أوقَعنا في جَدَلٍ شرِسٍ لا يرحم وعقيمٍ بِقدرِ ما هو منحرف.

الواقعُ الإسـبانيّ العربـيّ: يبدو لنا أنّه موضوع البحث المثالـيّ الذي يطرح الخيارات القاطعـة من حيث المبدأ ويولّدُ فينا انطباعاً يوحي بمعالجةٍ قِوامُها تمرينُ العقل والمنطق

(1) بيدرو مارتينيث مونتابيث Pedro MARTÍNEZ MONTÁVEZ، **تفكيرٌ في تاريخ العرب** *Pensando en la historia de los árabes*، مدريد: دار نشر كانت أرابيا CantArabia، 1995، ص ص 147-154. المقالة الأصليّة في *Revista de Occidente*، مدريد، العدد 140، كانون الثاني (يناير) 1993.

ولو تمريناً بسيطاً؛ ما يُشكّلُ ضرورةً حيويّةً في كلّ عمليّةٍ فكريّةٍ، ويشجّعُ على المُواجَهة. من منطلقِ وجهة النّظر هذه، السلبيّة في الظاهر، أوكّدُ أنّ معالجةَ الواقع الأندلسيّ لا تتعلّقُ بمعالجة ما يتّصلُ بغيرها، لا بل على العكس بمعالجة ما يتّصلُ بالخاصّ والمألوف. ليست بالمعالجة الظَرفيّة العَرَضيّة لا بل بالمعالجة الأساسيّة المترابطة.

في هذا السياق أستذكِرُ ما قاله الكاتبُ الأندلسيّ العظيم المنحدر من مالاغا، أدولفو رييس[2] Adolfo Reyes الذي لم يأخذ حقّه من الشعبيّة لسوء الحظّ: «أكثرُ ما يهمّنا في الواقع العربيّ الإسبانيّ تلك الحيويّة التي تَسِمُه، فهو نموذجٌ عن الأثر العربيّ الموجود فينا، الغارق في الأعماق منسيّاً، يتحرّكُ كما الذّكرى الحميمة التي نحاولُ استرجاعَها».

أنتهزُ الفرصة لأؤكّدَ أنّ أدولفو رييس، إلى جانب كونه كاتباً متألّقاً وباحثاً ماهراً، هو مفكّرٌ رفيع الشأن، ولاسيّما في موضوعات البحث شأن الموضوع الذي بين أيدينا. كما عُرف عنه التعاطف الفكريّ مع أميريكو كاسترو، وإن لم يكُن كليّاً، وتَبنّيه النظريّات الرئيسة لهذا الأخير حول الواقع التاريخيّ لإسبانيا. ولعلَّ هذا ما ألمحَ إليه ابن الكاتِب المذكور أرتورو رييس تيليز[3] Arturo Reyes Téllez، في التّمهيد الذي كتبه لمؤلّفات والده الكاملة *Obras completas* (مالاغا، 1969)، عندما قال: «لكن، لا أحد يشكّ في طرحه الواقعَ التاريخيّ لإسبانيا بروحانيّته الراسخة واللّغز الذي يُخفيه، وقد ألهَمته في كثيرٍ من الأحيان البحوثُ النثريّة الموريسكيّة، مع شيءٍ من الرفض والتحفّظ الطبيعيّ. لقد دقّت أعماله ناقوسَ الخطر وأيقظت بعضَ الجماعات الثمِلة من نشوة انتصاراتها التاريخيّة». برأيي، ليس من الحماقة تحليلُ أعمال رييس على ضوء الجدليّة الرائعة التي أثارها كِتاب كاسترو والردّ الذي أتى به سانشيز ألبورنوز[4] Sánchez Albornoz.

يهمُّني أن ألفتَ النظر كذلك إلى معطياتٍ أساسيّة أخرى في طرح المشكلة. إنّ الواقع الأندلسيّ الإسبانيّ، بطبيعته المزودحة والمُتقاطِعة، لم يكُن بالنّسبة إلينا مرجعاً للتناقض وعنواناً له فحسب، بل أحالَنا إلى مسألةٍ أكثر شموليّة وهي الواقعُ العربيّ، لا بل الواقع الإسلاميّ. تالياً، فهو يؤدّي، إلى حدٍّ كبير، وظيفةً تأمّليةً ودور الذريعة المجازيّة. كما يمثّلُ بجزءٍ منه صورةً واسعةً شاملةً ومتنوّعة للحقبة الزمنيّة البعيدة عنّا.

---

(2) باحث ومفكّر وشاعر ميكسيكي. ولد في 17 أيار (مايو) 1889 وتوفّي في 27 كانون الأوّل (ديسمبر) 1959. عاش في إسبانيا حيث كانت له بحوث ودراسات متعلّقة بالأدب الإسبانيّ (المُترجمة).

(3) كاتب من مالاغا وابن المفكّر والشاعر الميكسيكي الأصل أدولفو رييس (المُترجمة).

(4) مؤرّخ إسبانيّ ولد في مدريد في 7 نيسان (أبريل) 1893 وتوفي في أفيلا في 8 تموز (يوليو) 1984 (المُترجمة).

الأندلس
الدلالــة والرمزيّــة

صَدَرَ هذا الكِتاب باللّغة الإسبانيّة في العام 2011، بمناسبة المئويّة الثالثة عشرة لدخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الإيبيريّة ونشْره اللّغة والثقافة العربيَّتَين فيها، وتزامُناً أيضاً مع ذكرى طرد الموريسكيّين من الأندلس، وما استتبع ذلك من انحطاطٍ للكيان الأندلسيّ.

بهذه المُناسبة، يستجمع المُستعرب الإسبانيّ الكبير بيدرو مارتينيث مونتابيث Pedro Martinez Montavez في المجلّد الذي بين أيديكم عصارة أفكاره وتأمّلاته، على امتداد عقودٍ عدّة، ولاسيّما حول دلالة الأندلس ورمزيّتها؛ وقد توزّعت هذه الأفكار والتأمّلات على مجموعة من البحوث الأدبيّة والتاريخيّة، فضلاً عن المقالات الصحافيّة والسيَر الذاتيّة والاقتراحات التي توصي بضرورة مراجعة هذه الحقبة من التاريخ، ودراستها دراسةً معمَّقة وشاملة.

يتضمَّن الكِتاب أيضاً مقابلة مع المؤلّف عبّر فيها تعبيراً دقيقاً عن نظرته إلى تلك الحقبة التاريخيّة، وخصوصاً أنّ بصماتها ما زالت راسخة إلى اليوم في إسبانيا القرن الحادي والعشرين.

مؤسّسة الفكر العربي
شارع الجامع العمري، الوسط التجاري، بيروت
ص.ب.: 524-11بيـروت – لبنان
هاتف:00 71 99 1 961+ – فاكس:01 71 99 1 961+
www.arabthought.org – info@arabthought.org

توزيع:

منتدى المعارف alMaaref Forum
بناية "طبارة" - شارع نجيب العرداتي - المنارة - رأس بيروت
ص.ب.: 113-7494حمرا - بيروت 2030 1103 - لبنان
هاتف: 749140 1 961+ - فاكس: 749141 1 961+
بريد إلكتروني: info@almaarefforum.com.lb